تعقيب

بعد أن عرضنا لنماذج متنوعة من الفكر الدينى الشرقى القديم ، يمكننا أن نخلص إلى عدة ملاحظات على هذا الفكر ، نوجزها فيما يلى :

يلاحظ اهتمام هذا الفكر بمشكلة الشر التى احتلت مكانا كبيرا فيه ، ولقد حاول أصحاب هذا الفكر تفسير الشر الموجود فى العالم ، والشر فى صميمه مشكلة أخلاقية ، ولقد مدوا هذه النظرة الأخلاقية إلى تفسير أصل العالم ، واختلطت الأخلاق لديهم بما وراء الطبيعة[1] ، فقدموا تفسيرا ذو صبغة أخلاقية لأصل العالم، وقالوا بقوتين منفصلتين أحدهما تمثل الخير والأخرى تمثل الشر ، والصراع الدائم بينهما إلى أن ينتهى الأمر لصالح قوة الخير ، وحاولوا بذلك أن يوجدوا الوئام والوفاق بين وجود الشر وبين الخير الإلهى .

وأيضا نجد تلك النظرة الأخلاقية وراء قولهم بالتناسخ ، محاولين أن يفسروا بعض مظاهر الشر كألم الأطفال والحيوانات ، فاستحال عندهم أن يكون ألمها لتعوض به فى الآخرة ، أو يكون امتحانا أو عبرة وعظة لغيرها ، وقالوا إن ذلك لذنوب سلفت منها قبل الحال[2] ، وبذلك يكون التناسخ بمثابة جزاء وعقاب لما اقترفه المسيئون من البشر ، فظهروا فى صورة تلك الحيوانات بعد مماتهم ، لينالوا عقابهم .

لقد ظن أصحاب ذلك الفكر أنهم استطاعوا أن يقدموا تفسيرا لوجود الشر وأنهم قدموا حلولا لتلك المشكلة ، والناظر لتلك الحلول التى قدموها ، يجد أنها ضرب من الوهم والخيال ، فأقوالهم فى امتزاج النور الذى منه الخير والظلمة التى منها الشر والحروب التى قامت وخلاص النور من الظلمة ، مليء بالخرافة وبعبارات أسطورية ، ولقد ذكر القاضى عبد الجبار أن ما ذكروه من سبب المزاج ، ومن الحرب التى جرت بين النور والظلمة لو رآه الرائى فى منامه لدل على انتقاص عقله ، فكيف به إذا ذكر فى اليقظة ؟ ومن عجيب الأمور أن يعتقد العاقل هذا المذهب مع وضوح

---

(١) محمد إقبال : ما وراء الطبيعة فى إيران ص ٥٦ .

(٢) ابن الجوزى : تلبيس إبليس ص ٨٠ .

فساده[1] ، ونجد أيضا محمد إقبال يصف حل « مانى » وقوله بالامتزاج والخلاص ، بأنه حل ساذج[2] .

وهذا ينقلنا إلى الحديث عن طبيعة هذا الفكر ، والملاحظ منذ النظرة الأولى يجد أن هذا الفكر فى معظمه ملفوفا بالخيال ، مشوبا بالوهم والخرافة ، وذلك لأنه يقوم على العاطفة والخيال ، ولا نجد فيه جانبا تأمليا منطقيا يقوم على التحليل والاستنتاج ، فهو يقوم على الرؤية المباشرة ، ويفسرون الواقع تفسيرا ذاتيا لا موضوعيا ، ويتجلى ذلك فى نظرتهم الحسية المجسدة ، التى لا تتعدى المحسوس ، ويفسرون اللامحسوس تفسيرا محسوسا ، وهذا ما عبر عنه المتكلمون بأنهم يسوون بين الغائب والشاهد .

حقيقة أنهم قالوا بأفكار روحية للخليقة ، وأعلو من شأن الألوهية ، لكنهم مع ذلك كانوا ينطقون بلغة أسطورية ، والأسطورة كما يفسرها « هـ . فرانكفورت » أنها مجسدة محسوسة ، وتدع أن صدقها لا يمكن الطعن فيه ، وهى تطالب المؤمن بالاعتراف بها ، وإزاء المتشكك لا تحاول أن تبرر نفسها »[3] .

والناظر إلى أقوال أصحاب الديانات الشرقية والتى سبق ذكرها عند عرض آرائهم ، يلاحظ مدى افتقار هذا الفكر إلى النظرة التأملية والمنطقية ، وتفتقر إلى أساس عقلى يسندها وتقوم عليه ، ففى نظرتهم إلى أصل العالم ونشأته ومبدئه ، والصراع بين النور والظلمة الذى ينتهى بالخلاص للنور من الظلمة ، وهذا هو نهاية الدنيا أو هو القيامة والبعث ، نجد أنهم يقدمون رؤيتهم المباشرة المجسدة ، الخالية من النظرة المنطقية التى تقوم على التحليل والاستنتاج .

وقولهم بأصلين للعالم ، لا يخلو من تفكير بدائى إذ تصوروا بدء الخليقة على نحو يشبه الظروف الإنسانية ، فرأوا الخليقة كميلاد ، وأبسط شكل لذلك هو افتراض اثنين أولين ، هما والدا كل ما فى الوجود ، وذلك لأن الإنسان البدائى يعجز عن الانسحاب من حضرة الظواهر[4] .

---

(١) القاضى عبد الجبار : المغنى جـ ٥ ص ٦٤ .

(٢) محمد إقبال : ما وراء الطبيعة فى إيران ص ٦٥ .

(٣) هـ . فرانكفورت وآخرين : ما قبل الفلسفة ص ١٨ .

(٤) هـ . فرانكفورت : ما قبل الفلسفة ص ٢٠ - ٢٣

وسواء رجع قولهم بأصلين للعلم إلى أساس أخلاقى ، أو إلى الظروف الإنسانية ، فهو فى كلتا الحالتين يستند إلى الواقع المحسوس المشاهد ولا يتعداه ، فلقد قالوا إنهم فى الشاهد يرون أن الحكيم يفعل الخير ولا يفعل الشر ، فكذلك الأمر فى الغائب يكون فاعل الخير لا يفعل الشر فقالوا بفاعلين أو أصلين أو مبدأين أحدهما للخير والآخر للشر ، ولقد كان نتيجة الاقتصار على المحسوس والافتقار إلى الفكر التأملى ، أنهم أرادوا أن ينزهوا الله عن فعل الشر ، فأشركوا معه آخر ، وقالوا بالصراع بينهما ، وفى ذلك انتقاص من كمال القدرة الالهية ، وانتفاء معنى الألوهية .

وسوف نجد عند عرض ردود المتكلمين على هذا الفكر ، التركيز على الخطأ الذى وقع فيه أصحاب ذلك الفكر ، وهو الاقتصار على المحسوس وغياب الجانب العقلى فيه ، وتفسير الواقع تفسيرا ذاتيا .

ويلاحظ على الفكر الشرقى القديم تلك الثنائية التى سادت فيه ، فنجد فيه تفرقة واضحة بين الله والشيطان ، بين الخير والشر ، بين النفس والجسم ، وبين المادة والروح .

ولقد أعلوا من شأن الخير وقالوا بانتصاره على الشر ، وربما يشير هذا إلى نظرتهم التفاؤلية ، وضرورة غلبة الخير فى النهاية ، وأن الشر ليس له وجودا جوهريا بل هو وجود عرضى ، لكن غلبة الخير ليست أمرا سهلا ميسورا بل هى تتطلب جهدا شاقا سواء من اله الخير وأعوانه ، أو الإنسان ومسئوليته ويؤكد تلك المسئولية هو القول بالثواب والعقاب، فلقد بشرت بعض هذه الديانات بالثواب وأنذرت بالعقاب ، وقال بعضها بالمعاد ، حتى أولئك المنكرون للمعاد والقائلون بالتناسخ ، قد جعلوه بمثابة عقاب وجزاء على الشر الذى اقترفه الإنسان فى حياته الدنيا ، وعلى هذا فإن هذه الديانات تقر بتكليف الإنسان ، وإثابته على الخير وعقوبته على الشر .

ولذلك فلقد اتسمت تعاليمها وشرائعها العملية بصبغة أخلاقية واضحة ، فدعت إلى السلوك الأخلاقى الفاضل ، وأن يقتلع الإنسان من نفسه بذور الشر ، وأن يسيطر على أهوائه وانفعالاته ، وأن يأتى الخير ، ويمتنع عن الشر .

ويمكن القول إن هذه الديانات وإن جانبها الصواب فى جانب الاعتقاد ، وأنه كان مملوءا بالخرافة والجهل ، إلا أنه فى جانب السلوك العملى فلقد حالفها الصواب فى دعوتها الأخلاقية .

وعلى هذا فلقد احتل السلوك الأخلاقى العملى الجانب الأهم فى هذه الديانات، بل إن بعض أصحاب هذه الديانات كان يفضل السكوت عن الحديث عن الله ، ويهتم بالسلوك الفاضل الذى هو سبيل الخلاص من الشرور فى الدنيا ·

أيضا أعلت هذه الديانات من شأن الروح وقالوا بخلودها وعدم فنائها مع فناء الجسد ، حقيقة أنها قالت بتناسخ الأرواح فى صور إنسانية أخرى أو صور حيوانية ، لكن هذه الأرواح التى يتكرر مولدها ، هى أرواح المسيئين والعصاة ، التى تتطهر عبر تكرار مولدها ، حتى تخلص من ذنوبها ، وتصعد إلى الملأ الأعلى وتتحد به مع أصحاب الأرواح الخيرة ·

ويعد هذا الفكر فى معظمه قد تجاوز مرحلة الوثنية ، لكنه لم يرق إلى ديانة التوحيد الخالص ، فلم يتخلص كلية من أوهام وخيالات الوثنية ، فلقد بقيت به بعض آثارها ·

وإذا كانت بعض الفرق الشرقية القديمة قد أقرت بالتوحيد كبعض طوائف الصابئة ، إلا أنه لم يكن توحيدا خالصا ، بل شابته بعض تلك الأفكار الشرقية القديمة ·

ولقد تأثر هذا الفكر فى بعض نواحيه بالفلسفة اليونانية ، خاصة بعض الفرق وقولها بقدم العالم وقيام أدلتهم على أسس فلسفية ، واستعارتهم فى بعض الأفكار الفلسفية ، كما أن الفكر اليونانى قد تأثر ببعض أفكار الفكر الفارسى والهندى ، أى أن هذا الفكر لم يكن فكرا منغلقا على نفسه فلقد أثر وتأثر بغيره من الفكر ·

وهذا الفكر الدينى الشرقى القديم يعارض صراحة العقيدة الإسلامية ، وسوف نتحدث عن مظاهر الخلاف بينهما فيما بعد ، وعلى الرغم من معارضة هذا الفكر للعقيدة الإسلامية ، إلا أنه قد أثر فى بعض الفرق المنتسبة إلى الإسلام ، والتى سوف نتحدث عنها فى الفصل التالى ·

* * *